

الدولة الأخيضرية

للأستاذ . عبد الله بن يوسف الشبل
المدرس بالكلية

الحمد لله رب العالمين ، ونصلي ونسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن
استنّ بسنته ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

نحتزى هذه المقالة من بحث بعنوان : « ومضات من تاريخ الإمامة » هو عبارة
عن محاولة لإلقاء الضوء على جوانب معينة من تاريخ هذا الجزء من وطننا العزيز ،
وخطوة أولى في طريق طويل إلى كتابة تاريخ لهذه المنطقة ، نرجو أن يتوافر له من
الوقت والجهد والإمكانات العلمية والمادية ما يجعله تاريخاً يقرؤه الجميع لا فكرة في
الأذهان وأمنية في الخيال .

تمهيد :

ترك انتقال الخلافة إلى خارج الجزيرة العربية آثاراً خطيرة جداً من حيث الأهمية
وبعد المدى في النتائج لعل من أهمها ذلك الفراغ السياسي الهائل الذي خلفه انتقال
الحكم عن الحجاز ، وما ترتب عليه من محاولات لاسترداد ما فقده من سلطة
ونفوذ ، وكانت أبرز هذه المحاولات حركة (عبدالله بن الزبير - رضي الله عنهما -)
التي انتهت بالفشل مما جعل أهل الحجاز - من هاشميين وغيرهم - يستكينون
نتيجة للضربة العنيفة التي أجهزت على هذه الحركة ، فلما دخلت الدولة الأموية
في خريف عمرها وأحس الهاشميون - من علويين وعباسيين - بضعفها بدأوا
بالتخطيط لإسقاط الخلافة الأموية ، وكان بعض القادة الذين يعملون في الظل للإطاحة

بالأمويين لا يشكون في أن الخلافة ستؤول إلى العلويين لكنهم فوجئوا بتحويلها إلى العباسيين مما أوجب نقمة العلويين عليهم ، لأنهم كانوا يرون أنفسهم أحق بالخلافة من العباسيين ومن هنا فقد اعتبروهم مغتصبين للخلافة ، وناذوهم العداء ووقفوا منهم موقف المعارضة ، وصاروا يحاولون الخروج عليهم كلما رأوا الفرصة مناسبة .

ولن نستعرض - في هذه اللمحة - جميع المحاولات التي قام بها العلويون - في الجزيرة العربية وخارجها - ولكن نكتفي بالإشارة إلى حركة (إسماعيل بن يوسف ابن إبراهيم بن عبدالله بن موسى (الحنون) بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب) عام ٢٥٢هـ في المدينة ومكة^(١) ، وقيام أخيه (محمد) - المعروف بالأخضر - بالأمر من بعده ، ثم هزيمة محمد أمام الجيش العباسي بقيادة (أبي الساج الأشروسي)^(٢) وفراره إلى اليمامة وتأسيسه الدولة الأخيزرية هناك^(٣) . وهذا الموضوع هو ما نحاول إلقاء الضوء على بعض جوانبه .

عوامل قيام الدولة الأخيزرية :

إضافة إلى العامل السابق - وهو اعتقاد العلويين بأحقيتهم في الخلافة ومحاولة استردادها من العباسيين - يمكن أن نضيف أن طبيعة أحداث القرن الثالث الهجري كانت من العوامل التي ساعدت على قيام هذه الدولة ؛ كإسقاط العرب من ديوان العطاء وإقصاء العناصر العربية عن الحكم ، وارتداد بعضهم إلى الجزيرة ، وما تركته هذه المعاملة لهم من جانب الدولة من ردود فعل تمثلت لدى البعض منهم في ثورات القبائل وتمرداها وقطعها الطريق . ثم إحلال الأتراك محل العرب ، وتسلب

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي نشر دار صادر ودار بيروت عام ١٩٦٠م ٤٩٨/٢ ومحمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ط ٢ نشر دار المعارف بمصر ٣٤٦/٩ .

(٢) علي بن الحسين المسعودي : مروج الذهب نشر دار الأندلس - بيروت عام ١٩٧٣م ٩١/٤ .

(٣) المسعودي : المصدر السالف ٩٤/٤ ، وأبو محمد علي بن أحمد بن حزم : جمهرة أنساب العرب نشر دار المعارف بمصر عام ١٩٦٢م ١٣٨٢ تحقيق : عبد السلام هارون ص ٤٦ .

الأتراك على الخلفاء وما نتج عن ذلك من صراع على الخلافة وحرب أهلية وفتن داخلية شغلت الدولة عن صد الغزو الخارجي والخطر الداخلي الذي تمثل في ظاهرة التجزؤ في جسم الخلافة ، والذي يمثل قيام الدولة الأخيضرية أحد مظاهره .

ولعلنا في ضوء ما سبق نستطيع إجمال أهم العوامل التي ساعدت محمداً (الأخيضر) بن يوسف في تأسيس دولته :

١ - اعتقاد العلويين بأحقيتهم في الخلافة وفشلهم في انتزاعها من العباسيين مما جعلهم يقنعون بإقامة دويلات يكونون على رأسها .

٢ - إسقاط العرب من ديوان العطاء وإقصاء العنصر العربي عن الحكم مما جعله يشعر بعدة فراغات نفسية وسياسية حاول أن يعبر عن هذه المشاعر بثورات وتمرد على السلطة ، وإقامة دويلات تعوضه شيئاً مما فقده من سلطة ومركز .

٣ - إهمال العباسيين لمنطقة اليمامة لانشغالهم بمشكلاتهم الداخلية والخارجية ولفقرة هذه المنطقة في قيمها الروحية والمادية .

٤ - بعد هذه المنطقة - نسبياً - عن مركز الدولة ، وفراغها قيادياً في الفترة التي قامت فيها دولة الأخيضرين ؛ حيث لا نجد - فيما بين أيدينا الآن من المصادر - ذكراً لاسم من كان والياً على اليمامة في تلك الفترة .

تأسيس الدولة الأخيضرية :

تنسب الدولة الأخيضرية إلى (محمد - الأخيضر - بن يوسف بن إبراهيم ابن عبدالله بن موسى - الجون - بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) . وقد استولى على اليمامة عام ٢٥٣هـ عندما فر بعد هزيمته أمام الجيش العباسي بقيادة أبي الساج واتجه إلى اليمامة وأسس دولته هناك واتخذ (الخضرمة)^(١) قاعدة لحكمه .

(١) تقع الخضرمة في (جو) أسفل وادي الخرج في الموضع الذي تقوم فيه الآن اليمامة والسلامية والسيح .

وقد تداول بنوه حكم بلاد اليمامة ، إلا أن كتب التاريخ لا تذكر منهم سوى خمسة حكام ، كما أنها تضمن علينا بأي معلومات عن هؤلاء الحكام وفترات حكمهم .
والحكام الذين أوردت المصادر أسماءهم هم :

١ - محمد - الأخيضر - بن يوسف مؤسس الدولة وهو الذي اتخذ الخضرمة عاصمة لدولته (١) .

٢ - يوسف بن محمد - الأخيضر - (٢) .

٣ - إسماعيل بن يوسف بن محمد - الأخيضر - وقد أشركه أبوه معه في الحكم ، ثم انفرد بالحكم بعد وفاة أبيه (٢) ، وكان يحكم اليمامة في عام ٣١٣هـ وعاصر أبا طاهر (سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي) القرمطي ويبدو أنه كان على علاقة ودية معه فإن أبا طاهر لما استولى على الكوفة وأراد العودة إلى الأحساء سلمه إمرة البلاد (٣) . بل ذهب بعض الباحثين إلى أن حصن الأخيضر الذي لا تزال أطلاله باقية إلى اليوم في صحراء العراق على بعد ٢٥ ميلاً من كربلاء ربما سمي باسم إسماعيل بن يوسف عندما عهد إليه أبو طاهر بإمارة الكوفة عام ٣١٥هـ (٤) .

٤ - الحسن بن يوسف بن محمد - الأخيضر - (٥) .

٥ - أحمد بن الحسن بن يوسف بن محمد - الأخيضر (٦) - .

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، تحقيق الأكوع نشر دار اليمامة عام ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ص ٢٨٢
والمسعودي : مروج الذهب ٩٤/٤ وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٦ .

(٢) ابن حزم : ص ٤٦ .

(٣) المسعودي : التنبيه والإشراف ، نشر دار التراث - بيروت ص ٣٣٠-٣٣١ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية : المجلد ٢ ص ٤٦٥ .

(٥) ابن حزم ص ٤٦ .

(٦) المصدر نفسه .

مذهبهم الديني وسياستهم الداخلية :

الأخضر يون شيعة على مذهب الزيدية ، ويقولون في ندائهم : (محمد وعلي خير البشر ، وحيّ على خير العمل)^(١) .

أما سياستهم الداخلية : فكانت سيئة اتسمت بالخور وسوء السيرة كما توحى بذلك النصوص التاريخية ومن بينها :

١ - « وصادف ذلك دخول محمد بن يوسف الحسني الأخضر اليمامة ، وانقشاع أهلها من جوره إلى مصر والمعدن في آلاف كثيرة وغلبوا على من كان بها من أهل الحجاز لستهم وفورهم »^(٢) .

٢ - « وفيها يعني سنة ٣١٠هـ انتقل أهل قرآن^(٣) من اليمامة إلى البصرة لحيف لحقهم من ابن الأخضر في مقاسماتهم ... »^(٤) وهذا النص نقله ياقوت عن تاريخ ابن سيرين .

مدة حكم الأخضرين :

تكاد المصادر - التي بأيدينا الآن - تجمع على أن بداية حكم الأخضرين لليمامة كانت عام ٢٥٣هـ عدا ابن حوقل فقد أرخ ذلك بعام ٢٣٨هـ^(٥) .

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ط ٢ - ١٩٧٠م بيروت ص ١٤٣ .
(٢) محمد بن حوقل : صورة الأرض ، نشر كرامرز ليدن ١٩٣٨م ص ٥٣ .
(٣) قرآن بتشديد الراء : واد كبير فيه أودية وقرى وهو المعروف - الآن - بالشعيب وقاعدته (حريملاء) ، ومن قرأه القرينة المعروفة - قديماً - باسم قرآن ، ومن أوديته وادي وتر ويسمى - الآن - صلبوخ ، والتسمية حديثة ، ووادي وتر هذا غير وادي الوتر المعروف - الآن - بالبطحاء الذي يخترق مدينة الرياض .

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، نشر دار صادر ودار بيروت ١٩٥٦م ٣١٩/٤ .

(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٣ .

أما نهاية حكمهم ففيها خلاف كبير بين المؤرخين منشؤه أن القرامطة اجتاحت مناطق واسعة في الجزيرة العربية فظن بعض المؤرخين أن القرامطة استولوا على اليمامة وأنهوا حكم الأخيضريين فيها وهذا ما جعل ابن الجوزي يذكر في حوادث سنة ٣٢٥هـ أن اليمامة كانت تحت حكم (أبي طاهر سليمان بن الحسن الجنابي القرمطي)^(١) ، وابن خلدون حيث قال : « ولم يزل ملكها فيهم إلى أن غلب عليهم القرامطة وانقضى أمرهم والبقاء لله »^(٢) . وقد تابعه في الأخذ بهذا القول القلقشندي^(٣) .

ويمكن أن يحاجب عن هذا الرأي بأن عبارة ابن الجوزي خرجت فخرج الغالب في أن يكون البحرين واليمامة تحت سلطة واحدة .

أما ابن خلدون فالملاحظ أن المعلومات التي دونها عن الأخيضريين قد نقلها — نصاً — عن جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، إلا أنه اختلف عنه في تاريخ انتهاء حكم الأخيضريين ، ولم يشير إلى المصدر الذي بنى عليه رأيه في قضاء القرامطة عليهم ، ويبدو أن القلقشندي نقل عن ابن خلدون إن لم يكن نقل — أيضاً — عن ابن حزم .

على أننا نجد من النصوص التاريخية ما يثبت :

أولاً : أن اليمامة لم تدخل ضمن المناطق التي خضعت لحكم القرامطة .

ثانياً : بقاء حكم الأخيضريين لليمامة حتى بعد منتصف القرن الخامس الهجري .

ومن الأمثلة على النوع الأول :

١ — « وكان أبو سعيد قد استولى على الأحساء والقطيف وهجر والطائف وسائر بلاد البحرين »^(٤) .

(١) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ط ١٣٥٧ هـ حيدر آباد الدكن ٢٨٨/٦ .

(٢) ابن خلدون : العبر نسخة مصورة في بيروت عام ١٩٧١م عن طبعة بولاق - القاهرة - ١٢٨٤ هـ ٩٨/٤ .

(٣) القلقشندي : ١ - صبح الأعشي نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية - القاهرة - ٦٠/٥ - ٢ - نهاية

الأرب في معرفة أنساب العرب ط ١ - القاهرة ١٩٥٩م تحقيق إبراهيم الإبياري ص ٩٠ .

(٤) ثابت بن سنان الصابي : تاريخ أخبار القرامطة تحقيق سهيل زكار : بيروت ١٩٧١م ص ٣٧ .

٢ - « ولما قتل أبو سعيد (سنة ٣٠١ هـ) كان قد استولى على هجر والأحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد هجر » (١).

ومن الأمثلة على النوع الثاني :

١ - « ثم ترد الخضرمة جوّ الخضارم ، مدينة وقرى وسوق فيها بنو الأخيضر بن يوسف » (٢).

٢ - « وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب وفاة إسماعيل بن يوسف ... وما كان من أمر أخيه بعد وفاته وهو محمد بن يوسف مع أبي الساج وحربه إياه ، ولما انكشف من بين يدي أبي الساج سار إلى اليمامة والبحرين فغلب عليها وخلفه بها عقبه المعروف ببني الأخضر اليوم » (٣).

٣ - « وبالاختصار بلغنا اليمامة ... وأمرأؤها علويون منذ القديم ولم ينتزع أحد هذه الولاية منهم ؛ إذ ليس بجوارهم سلطان ، أو ملك قاهر ، وهؤلاء العلويون ذوو شوكة فلديهم ثلاثمائة أو أربعمائة فارس » (٤).

٤ - « ... وولى مكانه أخوه الأخيضر محمد ، فنهض إلى اليمامة وملك أمرها . وكان له من الولد : محمد وإبراهيم ويوسف وعبدالله وهم باليمامة ودار ملكهم بها الخضرمة ... ومنهم ولائها اليوم » (٥).

ويدل النصان الأولان على أن القرامطة لم يستولوا على اليمامة ، والنصوص الأربعة الأخيرة تثبت بقاء حكم الأخيضر بين هذه المنطقة .

(١) ابن الأثير : الكامل ١٤٧/٦ .

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٢٨٢ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ٩٤/٤ .

(٤) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٤١ و ١٤٢ .

(٥) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٦ و ٤٧ .

وعندما نستعرض النصوص الأربعة الأخيرة نجد أن النص الأول منها للهمداني وقد توفي - على الأرجح - عام ٣٤٤ هـ ، والنص الثاني للمسعودي وكانت وفاته عام ٣٤٦ هـ . أما النص الثالث فهو لناصر خسرو وقد زار اليمامة ورأى دولة الأخيضرين وما هي عليه من القوة وكانت زيارته لها عام ٤٤٣ هـ . والنص الأخير لابن حزم وقد عاش حتى سنة ٤٥٦ هـ .

وهذه النصوص تؤيد الرأي القائل باستمرار حكم الأخيضرين لليمامة حتى بعد منتصف القرن الخامس الهجري .

ولعلنا نستطيع تعليل عدم سيطرة القرامطة على منطقة نفوذ بني الأخيضر بما يأتي :

١ - أن القرامطة والأخيضرين يلتقون - معاً - في المذهب العقائدي وهو التشيع وفي الكره لآل العباس واعتبارهم معتدين على الخلافة .

٢ - أن الأخيضرين يتفقون مع القرامطة في الأهداف وهي الخروج على العباسيين وإقامة دويلات مستقلة عن خلافتهم ، ومن هنا كانت العلاقة الودية بين زعيمَي الحركتين التي سبقت الإشارة إليها .

٣ - أن القرامطة لو حاربوا الأخيضرين لفتحوا على أنفسهم جبهة ثانية على حين أن الخطر مأمون من هذه الجبهة بل ربما رأى القرامطة في بقاء هذه الدويلة مصلحة لهم باعتبارها درعاً يقيها خطر العباسيين الآتي من الحجاز فيما لو فكر بنو العباس بغزوهم من طريق الحجاز .

وبعد فهذا عرض لما يمكن أن يجده الباحث من معلومات عن هذه الدويلة في ضوء المصادر الموجودة بين أيدينا الآن ، وما يزال تاريخها يعاني الكثير من الفجوات في الجانب السياسي فضلاً عن الجوانب الحضارية . وكل ما أرجوه أن أكون بهذا البحث قد أثرت من لهم اهتماماً بهذا الموضوع ليصححوا خطأ أو يضيفوا جديداً أو يربطوا حلقة .

ونسأل الله السداد في القول والعصمة من الزلل .

والحمد لله رب العالمين .